الأهرام

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

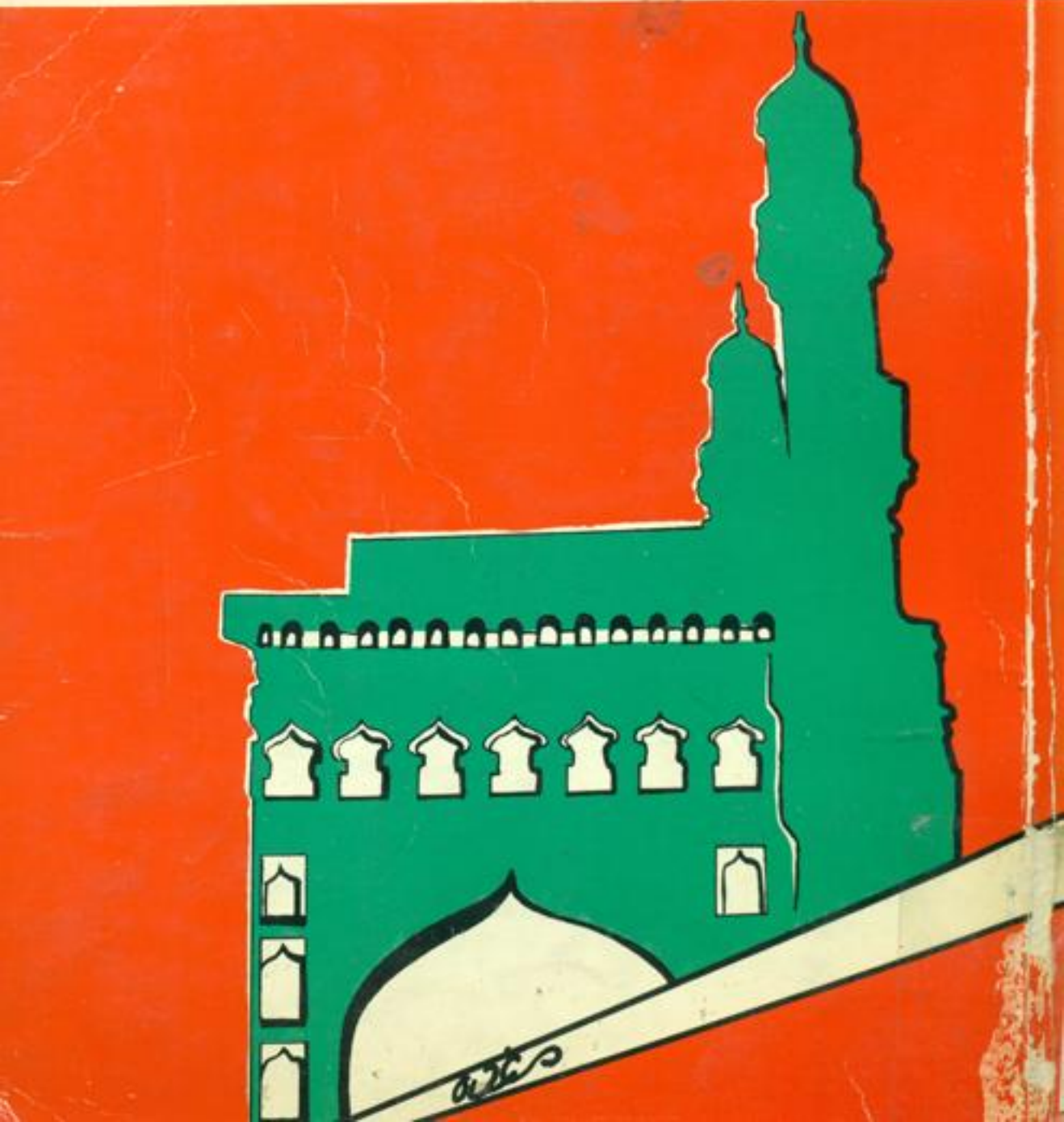

الحسين في المعتقد الشعبي المصري

هذا عنوان اطروحة الماجستير للباحث المصري المهندس شريف محمد راشد بكري الصدفي من سكان القاهرة ، يحمل بكالوريوس هندسة بتقدير جيد من جامعة القاهرة عام ١٩٧٦ واجتاز بنجاح أربعة فصول دراسية بالمعهد العالي للفنون الشعبية ويعمل حالياً مدير عام المشروعات بشركة كونديشن ـ القاهرة ، التقيناه في مفتتح شهر أيار ١٩٨٩ وهاهو يحدثنا عن اطروحته التي تحمل العنوان المذكور ليقدمها الى اكاديمية الفنون ـ المعهد العالي للفنون الشعبية للدراسات العملية بالقاهرة :

تنبع أهمية هذه الدراسة من طبيعة الحدث ذاته الذي ارتبط بصاحبه أوثق ارتباط حتى صار لا يذكر هذا الحدث إلا بصاحبه ، وأصبح الصاحب والحدث شكلاً تأريخياً وعقائدياً تختلف فيه الآراء إذا بحثه الدارسون ، وتتوحد فيه الفرق إذا انتقل الأمر الى الشعوب ولا أجد تعبيراً لوصف الحدث الأول خيراً مما قالته السيدة زينب قبالة يزيد بن معاوية عندما ساقوها ومن بقي حيّاً من آل البيت بعد معركة كربلاء إذ قالت له :

«لقد جئتم شيئاً ادّا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا» .

من أعماق هذه المأساة تتمة لمأساة أبيه علي بن أبي طالب ـ تولدت ظاهرة كان ولا يزال لها أبلغ الأثر في مسار تأريخ المنطقة الاسلامية بأسرها حتى لنلقاها اليوم تنتظم حياة شعوب بكاملها وجماعات متفرقة في شعوب اخرى ، ظاهرة لها تناغمها الداخلي ولها تفاعلاتها مع غيرها من الظواهر .

وهذه الظاهرة من التشابك والتعقد بحيث لا يمكن النظر اليها إلا من خلال زوايا متعددة تتكامل فيما بينها لتعطي الكل المشكل لجوهر هذه الظاهرة .

فأولاً : هي معتقد يحوي الأفكار الأساسية المشكلة لجوهر التفكير لدى كثير من البشر على اختلاف انتماءاتهم وأعمارهم ودياناتهم وهي تلك المتعلقة بالظن في قوة خاصة ترتبط بأشخاص بعينهم وهم (الأولياء) .

ودراسة الحسين بن علي في المعتقد الشعبي تتطلب ما يلي :

١) ـ دراسته (بالاضافة الى ولايته) من خلال المعتقد الشعبي في آل البيت بشكلٍ عام .
٢) ـ دراسة الطرق الصوفية المنتسبة اليه .
٣) ـ دراسة المعتقد الشعبي في السلسلة المنتسبة اليه (الأشراف) .
٤) ـ دراسة بعض الأفكار المرتبطة به وتتبعها من خلال المصادر المختلفة كأفكار :

ـ الغيبة .
ـ العودة .
ـ المسيح الدجال .
ـ المهدي المنتظر .
ـ يوم عاشوراء (العاشر من محرم) .
ـ الاربعين (٢٠ صفر) .
ـ فكرة الفداء بالدم وخلاص العالم بين المسيح والحسين .
ـ بين يحيى بن زكريا والحسين .

٥) ـ دراسة التسمية في المعتقد الشعبي من خلال التسمي باسم الحسين أو التسمية بـ (عبد الحسين) واطلاق الاسم على المحلات العامة في الأحياء الشعبية .

ثانياً : فإن الحسين بن علي موضوع كثيف المادة واسع الانتشار في الأدب الشعبي قصة ومرثية واسطورة وتاريخاً .

وكفى دلالة على ذلك ما جاء في الروايات عن مولده وكفاحه وموته ومقامه من المرت وما ارتبط بهذه المراحل من عجائب .

ومما روي في المولد أن ألفاً من الملائكة نزلت لتبشر جده محمداً صلى الله عليه وسلم بمولده ولكن جبريل واساه بينما هو يهنئه وأعطاه حفنة من ثرى كربلاء ، وأن مولده يشابه تماماً مولد يحيى بن زكريا الذي جاء قبل موعده بثلاثة أشهر وكذلك كان موتهما مقطّعي الرأس .

وأما موته فكان سبباً في استحالة النهار ظلاماً والسماء دماء يقطر على العباد حتى لتنشق الحجارة عن دم بين دمشق وخراسان .

وفي رواية اخرى أن ضواري الصحارى وأسماك البحار شاركت زوجات جن الأرض وملائكة السماء في النوح على صريع كربلاء .

وبينما كان الرأس المقطوع محمولاً كتبت ببراعة غامضة أبياتاً منذرة بالشؤ م على جدار ، ووجدت هذه الأبيات نفسها مسجلة في كنيسة للروم قبل بعث محمد (ﷺ) بثلاثمائة عام .

ذلك بعض قليل من كثير روي عن الحسين أوردته للدلالة على مدى ثراء الموضوع محل البحث وبذا فإن دراسة الحسين شعبياً لا تتم في غياب دراسة الأدبيات الشعبية عنه .

ولعلنا لسنا في حاجة الى تأكيد علاقة الترابط العضوي بين المعتقد والأدب الشعبي خاصة عند دراسة الحسين .

ثالثاً : فقد تمخض الاعتقاد في الأولياء عن (المولد) كمظهر احتفالي شعبي ، بينما ولدت مأساة الحسين (المأتم) .

وبينما تعددت مظاهر الانشراح في الأول استحالت في الثاني رثاء وبكاء ونواحاً وعويلاً ، وبينما كانت طقوس ادونيس الاحتفالية وأغاني ديونيس تمهيداً لبزوغ التراجيديا اليونانية كانت طقوس (المأتم) او (التعازي) بمثابة المسرح الاسلامي ـ في قول ـ أو هي جيل الدراسة الاسلامية الأول قبل المسرح العربي في قول آخر .

إن إعادة تمثل آلام الحسين طوال العشرة أيام الاولى من محرم كل عام تذكرنا على الفور بإعادة المسلمين تمثل آلام هاجر وابنها اسماعيل ممثلة في شعائر الحج في ذي الحجة من كل عام .

فماذا تنبىء إذن عنه هذه الممارسة وتلك المشابهة .

وبعد : فقد تأصل المعتقد داخل معتنقيه وغذته الممارسة الجماعية للطقوس المرتبطة به فأبقته متأججاً في نفوسهم مما أسفر عن أخطر تغيرات العصر في المنطقة بأكملها .

ومن هنا كانت الأهمية البالغة لدراسة الحسين شعبياً .

ورغم أن الموضوع الواحد يمكن دراسته من خلال الأفرع المختلفة لميادين البحث في المأثورات الشعبية كما سلف التنويه عنه إلا أن الباحث يرى ان المنطلق الأول لهذه الدراسة لا بد وأن يكون هو المعتقد ، ذلك انه هو مبعث الحركة الاول ومفجرها ، ثم تبعته اللواحق الاخرى في عملية تأثير حيني على مدى التاريخ .

منهج موضوع الدراسة :

الباب الأول : الحسين تاريخياً ويتضمن هذا الباب تتبع قصة الحسين في المدونات والدراسات السابقة .

الباب الثاني : الدراسة الميدانية وذلك في المعتقدات الشعبية .

الباب الثالث : الدراسة التحليلية وتتضمن دراسة النتائج والمقابلة بين المفهوم الرسمي والشعبي ومحاولة قياس الانحراف ومدلولاته . Deviction